فى أنفسكم فإنكم معجزة : لقد كنتم صغارا ، ومن قبل لم تكونوا شيئا مذكورا ، ثم وهب لكم الله العقل والقوة والجمال والرحمة، أشرف الصفات) .

* ومن أجمل ماقرأت فى هذا كذلك تحت عنوان [1] :

من دلائل قدرة الله

قصيدة لفضيلة الأستاذ الشيخ الصاوى شعلان ـ رحمه الله تعالى ـ يقول فيها مشيرا إلى عظمة الخالق سبحانه وتعالى وتمس شغاف قلوب المؤمنين الموحدين :

نشر الصبح على الدنا سناه
وسقى الروض رحيقا من نداه
واكتسى الروض من النور حلاه
الندى من فيض مَنْ ؟!
والضحى من نور مَنْ

* * *

(١) فى كتاب : مع الله ، نظرات فى الكون والحياة ، للاستاذ عبد الجواد رجب٠٠ طبعة دارالاعتصام

أقبلت فى بسمة الفجر الطيورْ

تسكب الألحان عطرا فى الزهورْ

تصنع العش وتسعى فى البكور

عيشها فى رزق مَنْ ؟!

وهى أيضا صنع مَنْ ؟!

* * *

حوت الأرض أفانين الشجرْ

بين ألوان وطول وقِصرْ !!

وغصون مورقات وثَمَر

مُنْبِت الأشجار مَنْ ؟!

راسم الألوان مَنْ ؟!

* * *

وترى الشمس عروس المشرق

وجمال البدر عند الأفقِ

سـابحا فـى الطيلسـان الأزرقِ

الـدرارى صـنع مَـنْ ؟!

والسـموات لمـن ؟!

* * *

داعب النـحلُ مـن الزهـر شَذاه

وأحـال الـوردَ شـهدا فـى رُبـاه !!

وبنـت هنـدسةُ النـمل قـراه

مُـرْشِـدُ النحـلة مَـنْ ؟!

مُلْهِـمُ النمـلة مَـنْ ؟!

* * *

الجنـينُ استقـبل الـرزقَ الجـديدْ ؟!

وتـوالى وهـو فى المـهـد السـعيدْ !

قـبل أن تَنْبُـتَ أسـنانُ الولـيدْ

أطعـــــمته يـــــد مـــــنْ ؟!

صَـــــوَّرتْه يـــــد مَـــــــنْ ؟!

* * *

لم يا مخلوق آثرت الجحـــودْ ؟!

كُنْتَ معدوما فَمِنْ أين الوجـــودْ ؟!

أَهِـــيَ الـــصُّدْفَـــةُ أم رَبٌّ ودود

قبـــله فـى الـكـون مَـــنْ ؟!

بعـــده فـــى المـــلك مَـــنْ ؟!

* * *

لـو تنـــاهيتم إلى ســـر الحـــياهْ

وصنـــعتم كـائنا حيـــا نـــراهْ !!

لـــم نـــزد إلا يقـــينا بـــالإلهْ

* * ومن أجمل ما قرأت كذلك حول موضوع :

البراهين الدالة على وجود الخالق سبحانه وتعالى

ما قاله صاحب كتاب (معارج القبول) حول « إثبات ذات الـــرب جل وعلا » حيث يقول : فإن هذه العوالم العلويات والسفليات لا بد لها من موجد أوجدها ويتصرف فيها ويدبرها . ومحَال أن توجد بدون مُوجِد ، ومحال أن تُوجِد أنفسها . قال الله تبارك وتعالى فى مقام إثبات الـــربوبية وتوحيد الألوهية :

* ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ (١)

قال ابن عباس رضى الله عنهما : ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ ﴾ أى : من غير رب ، ومعناه : أُخلِقُوا من غير شىء خلقهم فَوُجِدوا بلاخالق ، وذلك مما لا يجوز أن يكون ؛ لأن تعلق الخلق بالخالق من ضرورة الاسم ، فلابد له من خالق ، فإن أنكروا الخالق لم يجز أن يُوجَدُوا بلا خالق ﴿ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ لأنفسهم ،

---

(١) الطور : ٣٥ و ٣٦ .

وذلك فى البطلان أشد ؛ لأن ما لا وجود له كيف يخلق ؟ فإذا بطل الوجهان قامت الحجة عليهم بأن لهم خالقا فليؤمنوا به ﴿ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ وهذا فى البطلان أشد وأشد ؛ فإن المسبوق بالعدم يستحيل أن يُوجِدَ بنفسه ، فضلا عن أن يكون مُوجِداً لغيره ، وهذا إنكار عليهم فى شركهم بالله عزوجل وهم يعلمون أنه الخالق لا شريك له ﴿ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ أى : ولكن عدم إيقانهم هو الذى يحملهم على ذلك .

* وعن جبير بن مطعم رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقرأ فى المغرب [1] بالطور ، فلما بلغ هذه الآية: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴾ [2] ـ كاد قلبى أن يطير . (أخرجاه فى الصحيحين) .

وكثيرا ما يرشد الله تبارك وتعالى عباده إلى الاستدلال على

---

(١) أى فى صلاة المغرب .

(٢) الطور ٣٥ ـ ٣٧

معرفته بآياته الظاهرة من المخلوقات العلوية والسفلية كما قال تعالى :

* ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ (١) ، أى : فيها من الآيات الدالة على عظمة خالقها وقدرته الباهرة ، مما قد ذرأ فيها من صنوف النبات والحيوانات والوِهاد والجبال والقِفار والأنهار والبحار ، واختلاف ألسنة الناس وألوانهم ، وما جبلوا عليه من الإرادات والقوى ، وما بينهم من التفاوت فى العقول والفهوم والحركات والسعادة والشقاوة ، وما فى تركيبهم من الحكم فى وضع كل عضو من أعضائهم فى المحل الذى هو محتاج إليه فيه ؛ لهذا قال الله عزوجل :

* ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (٢) ، قال قتادة : مَنْ تفكر فى خلق نفسه علم أنه إنما لينت مفاصله للعبادة ، وكذا فى ابتداء الإنسان من الآيات العظيمة ؛ إذ كانت نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظاما إلى نفخ الروح فيه. وقال تعالى :

* ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْىدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ

(١) الذاريات : ٢٠

(٢) الذاريات : ٢١ .

فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[1] يقول الله تعالى منبها على خلق العالم العلوى والسفلى: (وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا) أى جعلناها سقفا محفوظا رفيعا (بأيد) أى بقوة ، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والثورى وغير واحد ، (وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ) ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : لقادرون ، وعنه أيضا : لموسعون الرزق على خلقنا . وقيل : ذوسعة• وقال ابن كثير : أى قد وسَّعنا أرجاءها ورفعناها بغير عمد حتى استقامت كما هى . (وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا) أى جعلناها فراشا للمخلوقات ، (فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ) الباسطون نحن . قال ابن عباس : نِعْمَ ما وطأتُ لعبادى . (وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ) صنفين ونوعين مختلفين كالسماء والأرض ، والشمس والقمر ، والليل والنهار ، والبر والبحر ، والسهل والجبل ، والشتاء والصيف ، والجن والإنس ، والذكر والأنثى ، والنور والظلمة ، والإيمان والكفر ، والسعادة والشقاوة ، والجنة والنار ، والحق والباطل ، والحلو والمر ، والدنيا والآخرة ، والموت والحياة ، والجامد

---

(١) الذاريات : ٤٧ ـ ٤٩

والنامى ، والمتحرك والساكن ، والحر والبرد ، وغير ذلك . (لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) أى لتعلموا أن الخالق واحد فرد لا شريك له .أ.هـ ابن كثير والبغوى .

وقال تعالى : * ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (١) . قال أبو الضحى : لما نزلت : (وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢)) قال المشركون : إنْ كان هكذا فليأتنا بآية ، فأنزل الله عزوجل : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ تلك فى ارتفاعها ولطافتها واتساعها وكواكبها السيارة والثوابت ، ودوران فلكها ، وهذه الأرض فى كثافتها وانخفاضها وجبالها وبحارها وقفارها ووهادها وعمرانها وما فيها من المنافع « **واختلاف الليل والنهار** » هذا يجيء ثم يذهب ويخلفه الآخر ، ويعقبه ولا يتأخر عنه لحظة كما قال تعالى :

---

(١) البقرة : ١٦٤.

(٢) البقرة : ١٦٣.

﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (١) ، وتارة يطول هذا ، ويقصر هذا ، وتارة يأخذ هذا من هذا ، ثم يتعاوضان ، كما قال تعالى :

﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ... ﴾ (٢) أى يزيد من هذا فى هذا ، ومن هذا فى هذا (وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ) أى فى تسخير البحر بحمل السفن من جانب إلى جانب لمعايش الناس والانتفاع بما عند أهل ذلك الإقليم ونقل هذا إلى هؤلاء . ﴿ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ (٣) كما قال تعالى : « وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ » (٤) . إلى قوله : ﴿ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٥) ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ﴾ (٦) على اختلاف أشكالها وأنواعها وألوانها ومنافعها وصغرها وكبرها ،

---

(١) سورة يس : ٤٠

(٢) الحديد : من الآية ٦ .

(٣) البقرة – من الآية : ١٦٤ .

(٤، ٥) سورة يس : ٣٣ – ٣٦ .

(٦) البقرة – من الآية : ١٦٤ .

وهو يعلم ذلك كله ويرزقه لا يخفى عليه شيء من ذلك كما قال تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾[1] . (وتصريف الرياح) فتارة تأتى بالرحمة ، وتارة تأتى بالعذاب وهى الريح ، وتارة تأتى مبشرات بين يدى السحاب ، وتارة تسوقها ، وتارة تجمعه، وتارة تفرقه ، وتارة تصرفه ، ثم تارة تأتى من الشمال وهى الشامية ، وتارة تأتى من ناحية اليمن ، وتارة صَباً وهى الشرقية، وتارة دبوراً وهى غربية وغير ذلك والله أعلم ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أى سائر بين السماء والأرض مسخر إلى ما يشاء الله من الأراضى والأماكن كما يصرفه تعالى .﴿لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ أى فى هذه الأشياء دلالات بينة على وحدانية الله تعالى (لقوم يعقلون) فيعلمون أن لهذه الأشياء خالقا وصانعا غنيا بذاته ، وكل ما سواه فقير إليه ، قائماً بذاته ، وكل ما سواه عاجز لا قدرة له إلا بما أقدره ، متصفا بجميع صفات الكمال ، وكل ما سواه ملازمه النقص ، وليس الكمال المطلق إلا له ، وهو

---

(١) هود : ٦ .

الله تبارك وتعالى . وقال تبارك وتعالى : * ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ (١).

يقول تعالى : (وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ) الدالة على عظمته وكمال قدرته أنه خلق أباكم آدم من تراب (ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ) فأصلكم من تراب ثم من ماء مهين ، ثم تصور فكان علقة ، ثم مضغة ، ثم صار عظاما شَكْلُه شَكْلُ إنسان ، ثم كسا الله تعالى تلك العظام لحما ، ثم نفخ فيه الروح فإذا هو سميع بصير ، ثم

(١) الروم : ٢١-٢٥ .

أُخْرِجَ من بطن أمه صغيرا ضعيف القوى والحركة ، ثم كلما طال عمره تكاملت قواه وحركاته حتى آل به الحال إلى أن صار يبنى المدائن والحصون ، ويسافر فى أقطار الأقاليم ويركب متن البحور ، ويدور أقطار الأرض ، ويكتسب ويجمع الأموال ، وله فكرة وغور ودهاء ومكر ، ورأى وعلم ، واتساع فى أمور الدينا والآخرة ، كل بحسبه ، فسبحان من أقدرهم وسيرهم وسخرهم وصرفهم فى فنون المعايش والمكاسب وفاوت بينهم فى العلوم والفكر ، والحسن والقبح، والغنى والفقر ، والسعادة والشقاوة .

* وعن أبى موسى رضى اللّه عنه قال : قال رسول الله ﷺ: (**إن الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك ، والخبيث والطيب، والسهل والحزن وغير ذلك**) رواه أحمد وأبو داود والترمذى • وقال حسن صحيح • ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ أى خلق من جنسكم إناثا تكون لكم أزواجا ﴿لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ كما قال

تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [1]. يعنى بذلك حواء خلقها الله تعالى من آدم من ضلعه الأقصر الأيسر ، ولو أنه تعالى جعل بنى آدم كلهم ذكورا وجعل إناثهم من جنس آخر من غيرهم إما من جان أو حيوان ـ لَمَا حصل هذا الائتلاف بينهم وبين الأزواج ، بل كانت تحصل نفرة لو كانت الأزواج من غير الجنس ، ثم من تمام رحمته ببنى آدم أن جعل الأزواج من جنسهم ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً ﴾ وهى المحبة ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ وهى الرأفة ، فإن الرجل يمسك المرأة إما لمحبة لها أو لرحمة بها بأن يكون لها منه ولد أو محتاجة إليه فى الإنفاق أو للألفة بينهما وغير ذلك ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فى عظمة الله وقدرته ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ﴾ الدالة على قدرته العظيمة ﴿ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أى خلق السموات فى ارتفاعها واتساعها وشفوف أجرامها وزهارة كواكبها ونجومها الثوابت والسيارات ، وخلق الأرض فى انخفاضها وكثافتها وما فيها من جبال وأودية وبحار وقفار وحيوان وأشجار . ﴿ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ ﴾ يعنى اللغات ، فهؤلاء بلغة العرب ، وهؤلاء لهم لغة

---

(١) الأعراف : من الآية ١٨٩ .

أخرى ، وهؤلاء كرج ، وهؤلاء روم ، وهؤلاء إفرنج ، وهؤلاء بربر ، وهؤلاء حبشة ، وهؤلاء هنود ، وهؤلاء فرس ، وهؤلاء صقالبة ، وهؤلاء خزر ، وهؤلاء أرمن ، وهؤلاء أكراد، إلى غير ذلك مما لا يعلمه إلا الله عزوجل من اختلاف لغات بنى آدم ﴿وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ أى واختلاف ألوانكم أبيض وأسود وأحمر ، وأنتم أولاد رجل واحد، وامرأة واحدة ، وغير ذلك من اختلاف الصفات والحلى ، لجميع أهل الأرض ، بل أهل الدنيا منذ خلق الله آدم إلى قيام الساعة ، كلٌّ له عينان وحاجبان وأنف وجبين وفم وخدان ، وليس يشبه واحد منهم الآخر ، بل لابد أن يفارقه بشىء من السمت أوالهيئة أو الكلام ظاهرا كان أو خفيا يظهر عند التأمل، كل وجه منهم أسلوب بذاته وهيئته لا تشبه أخرى ، ولو توافق جماعة فى صفة من جمال وقبح لا بد من فارق بين كل واحد منهم وبين الآخر ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ أى ومن الآيات ما جعل الله من صفة النوم فى الليل فإنه فيه تحصل الراحة وسكون الحركة وذهاب الكلام والتعب ، وجعل لكم الانتشار والسعى فى الأسباب والأسفار فى النهار وهذا ضد النوم ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ

﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ سماع تدبر واعتبار . ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ الدالة على عظمته أنه ﴿يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أى تارة تخافون مما يحدث بعده من أمطار مزعجة وصواعق متلفة ، وتارة ترجون وميضه وما يأتى بعده من المطر المحتاج إليه ، ولهذا قال تعالى : ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ أى بعد ما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شيء فلما جاءها الماء ﴿ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ (١) . وفى ذلك عبرة ودلالة واضحة على الميعاد وقيام الساعة ؛ ولهذا قال تعالى ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ، ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ كقوله تعالى : ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ (٢) .وقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ (٣) .وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذا اجتهد فى اليمين قال : (والذى قامت السموات والأرض بأمره) أى هى قائمة ثابتة بأمره لها وتسخيره إياها ، ثم إذا كان يوم القيامة بُدِّلَتْ

---

(١) الحج : من الآية ٥ .

(٢) الحج : من الآية ٦٥ .

(٣) فاطر : من الآية ٤١ .

الأرضُ غير الأرض والسموات ، وخرجت الأموات من قبورها أحياء بأمره تعالى ودعائه إياهم ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ أى من الأرض . كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ (٣) والآيات فى هذا الباب العظيم من الاستدلال بالمخلوقات على وجود خالقها وقدرته وعظمته أكثر من أن تُحْصَى وأجل من أن تُسْتَقْصَى ، وفيما ذكرنا كفاية وغِنًى يغنى عن خلط المناطقة ومقدماتهم ونتائجهم وتناقضهم فيها ، والله تبارك وتعالى أعلى وأكبر وأجل وأعظم من أن يحتاج فى معرفة وجوده إلى شواهد واستدلالات ، فذات المخلوق نفسه شاهدة بوجود خالقه ، حيث أوجده ولم يك من قبل شيئا ، فلم يذهب يستدل بغيره وفى نفسه الآية الكبرى والبرهان الأعظم؟

---

(١) الإسراء : ٥٢ .

(٢) النازعات : ١٣و١٤

(٣) يس : ٥٣

وشأن الله تعالى أكبر من ذلك، ولم يجحد وجوده تعالى من جحده من أعدائه إلا على سبيل المكابرة ؛ ولهذا قال تعالى فى كفرهم بآياته : ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ (١) . فكيف بوجود الخالق تبارك وتعالى . ولهذا لما قال أعداء الله لرسله على سبيل المكابرة لما جاءوهم بالبينات فردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا : ﴿ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝٩ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ... ﴾ (٢) . وهذا يحتمل شيئين : أحدهما أفى وجوده تعالى شك ، فإن الفطر شاهدة بوجوده ومجبولة على الإقرار به ، فإن الاعتراف به ضرورى فى الفطر السليمة ، ولكن قد يعرض لغيرها شك واضطراب ، وأكثر ذلك على سبيل المكابرة والاستهزاء، فيجب إقامة الحجة عليهم للإعذار إليهم ؛ ولهذا قالت لهم رسلهم ترشدهم إلى طريق معرفته فقالوا : (فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ) الذى خلقها وابتدعها على غير مثال سبق ، فإن شواهد

---

(١) النمل : من الآية ١٤ .

(٢) إبراهيم : آخر الآية ٩ وصدر الآية ١٠ .

الحدوث والخلق والتسخير ظاهرة عليهما فلا بد لهما من خالق ، وهو الله الذى لا إله إلا هو خالق كل شىء ومليكه ، والمعنى الثانى فى قولهم (**أفى الله شك**) أى أفى إلهيته وتفرده بوجوب العبادة له شك ، وهو الخالق لجميع الموجودات ولا يستحق العبادة إلا هو وحده لا شريك له ؟ فإن غالب الأمم كانت مُقِـرَّةً بالخالق ، ولكن تعبد معه غيره من الوسائط التى يظنونها تنفعهم أو تقربهم ، والجواب لهذا الاستفهام على كلا المعنيين : لا ، أى لا شك فيه .

* * وقد نقل عن الأئمة وعن غيرهم فى هذا الباب :

* عن الإمام مالك رحمه الله تعالى : أن الرشيد سأله عن ذلك فاستدل له باختلاف اللغات والأصوات والنغمات .

* وعن أبى حنيفة رحمه الله تعالى أن بعض الزنادقة سألوه عن وجود البارى تبارك وتعالى فقال لهم : دعونى فإنى مفكر فى أمر قد أخبرت عنه ، ذكروا لى أن سفينة فى البحر موقرة فيها أنواع من المتاجر وليس بها أحد يحرسها ولا يسوقها ، وهى مع ذلك تذهب وتجىء وتسير بنفسها ، وتخترق الأمواج العظام حتى تخلص منها وتسير حيث شاءت بنفسها من غير أن يسوقها أحد . فقالوا :

هذا شيء لا يقوله عاقل . فقال : وَيْحَكُمْ !! هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوى والسفلى وما اشتملت عليه من الأشياء المحكمة ليس لها صانع ؟ فَبُهِتَ القوم ورجعوا إلى الحق وأسلموا على يديه .

* وعن الشافعى رحمه اللّه تعالى أنه سئل عن وجود الخالق عز وجل ، فقال : هذا ورق التوت طَعْمه واحد ، تأكله الدود فيخرج منه الإبريسيم [1] ، وتأكله النحل فيخرج منه العسل ، وتأكله الشاء والبقر والأنعام فتلقيه بعرا وروثا ، وتأكله الظباء فيخرج منه المسك . وهو شيء واحد .

* وعن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله أنه سئل عن ذلك فقال : هاهنا حصن حصين أملس ليس له باب ولا منفذ ، ظاهره كالفضة البيضاء ، وباطنه كالذهب الإبريز ، فبينا هو كذلك إذ تصدع جداره فخرج منه حيوان سميع بصير ذو شكل حسن وصوت مليح اهـ يعنى بذلك البيضة إذا خرج منها الديك .

---

(١) أى الحرير .

* وسئل أبو نواس عن ذلك فأنشد :

تأمَّلْ فـى ريـاض الأرض وانـظرْ
إلـى آثـار مـا صـنع المليـكُ
عـيون مـن لُجَيْن شـاخصات
بأحـداق هـى الذهـب السبيكُ
علـى قُضُـبِ الزبرجـد شاهـدات
بـأن اللـه ليـس لـه شـريك

* وقال ابن المعتز ، ويروى لأبى العتاهية ـ رحمهما الله تعالى :

فيـا عجـبا كيـف يعـصى الإ لـ
ـه أم كـيف يجحـده الجاحـدُ ؟
ولله فـى كـل تحـريكة
وفـى كـل تسكينـة شاهـدُ

وفى كـــــــل شىء لـــــه آيـة

تـــدل علـــى أنـه الـواحـــدُ

* وسئل بعض الأعراب عن هذا وما الدليل على وجود الرب تعالى ، فقال : ياسبحان اللّه ، إن البعر يدل على البعير ، وإن أثر الأقدام ليدل على المسير ، فسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ، ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير ؟

* ومن خطب قس بن ساعدة الإيادى ـ رحمه الله ـ وكان على ملة إبراهيم عليه السلام : أيها الناس اجتمعوا فاسمعوا وإذا سمعتم فَعُوا ، وإذا وَعَيْتُمْ فانتفعوا ، وقولوا ـ أو إذا قلتم ـ فاصدقوا ، مَنْ عاش مات ، ومن مات فات، وكل ماهو آتٍ آتٍ ، مطر ونبات، وأحياء وأموات ، ليل داج ، وسماء ذات أبراج ، ونجوم تزهر ، وبحار تزخر ، وضوء وظلام ، وليل وأيام ، وبر وآثام، إن فى السماء خبراً وإن فى الأرض عبرا يحار فيهن البصير ، مهاد موضوع ، وسقف مرفوع ، ونجوم تغور ، وبحار لا تفور ، ومنايا دَوَانٍ ، ودهر خَوَّانٌ ، كحد الفسطاس ووزن القسطاسْ .

أقسم قُسٌّ قَسَماً ، لا كاذبا فيه ولا آثما : لئن كان فى هذا الأمر

رضاً ليكونن سخط ، ثم قال : أيها الناس ، إن لله دينا هو أحب إليه من دينكم هذا الذى أنتم عليه ، وهذا زمانه وأوانه . ثم قال : مالى أرى الناس يذهبون فلا يرجعون، أرضوا بالمقام فأقاموا ، أم تركوا فناموا ؟

وفى بعض ألفاظها قال: شرق وغرب ، يتم وخرب ، وسلم وحرب ، ويابس ورطب ، وأُجاج وعَذْب ، وشموس وأقمار ، ورياح وأمطار ، وليل ونهار ، وإناث وذكور ، وبرار وبحور ، وحَبٌّ ونبات ، وآباء وأمهات ، وجمع وأشتات ، وآيات فى إثرها آيات ، ونور وظلام ، ويسر وإعدام ، ورب وأصنام ، لقد ضل الأنام ، نشء مولود ، ووَأْد معقود ، وتربية محصود ، وفقير وغنى ، ومحسن ومسيء ، تَبّاً لأرباب الغفلة ، ليصلحن العامل عمله ، وليفقدن الآمل أمله ، كلا بل إله واحد ليس بمولود ولا والد ، وأعاد وأبْدَى، وأمات وأحيا، وخلق الذكر والأنثى ، رب الآخرة والأولى، أما بعد فيا معشر إياد ، أين ثمود وعاد ؟ وأين الآباء والأجداد ؟ وأين العليل والعواد ؟ كل له معاد . يقسم قس برب العباد ، وساطح المهاد ، لتحشرن على الإفراد ، فى يوم التناد ، وإذا نفُخَ فى

الصور ، ونُقِرَ فى الناقور ، ووعظ الواعظ ، فانتبذ القانط وأبصر اللاحظ فويل لمن صدف عن الحق الأشهر ، والنور الأزهر ، والعرض الأكبر ، فى يوم الفصل ، وميزان العدل ، إذا حكم القدير، وشهد النذير ، وبعد النصير ، وظهر التقصير ، فريق فى الجنة وفريق فى السعير .

* وهذا كسرى أنوشروان ملك الفرس يقول وقد صفت نفسه ، وأشرق فكره يخاطب الْفَلَكَ : إن بناء أنت سَقْفُهُ لعظيم ، وإن بيتا أنت غطاؤه لجليل ، وإن شيئا أنت تظلله لكبير ، وإن فيك عجبا للمتعجبين ، فليت شعرى ، أَعَلَى عَمَدٍ من تحتك تستمسك ، أم بمعاليق من فوقك ؟ ولعمرى إن مَلَكاً أمسكتك قدرته لملك عظيم ، وإنه فى استدارتك بتقديره لحكيم خبير ، وإن من غفل عن التفكير فى هذه العظمة لَغِرٌّ صغير . وليت شعرى : أيتها الأفلاك : بم طلوعك حين تطلعين ؟ وبم مسيرك حين تسيرين ؟ وأُفُولُكِ حين تأفلين ؟ وعلام سقوطك حين تغيبين ؟ !! ليت شعرى ، أساكنة أم تتحركين ، أم كيف صفتك التى بها تتصفين ، ولونك الذى به تتسمين ؟ ومن سماك بأسمائك التى بها تُعْرَفين ؟!

فسبحان من لأمْرِه تنقادين ، وبمشيئته تجرين ، وبصنعته استقامتك حين تستقيمين ، ورجوعك حين ترجعين) .

* ولله در الشاعر الأزهرى الشيخ محمد الأسمر رحمه الله تعالى ، فلقد قال كلاما يكتب بمداد من الذهب على صحائف من نور ، إن دل على شيء فإنما يدل على أن الرجل كان موحدا، وكان من الذين عرفوا الله تبارك وتعالى حق المعرفة ، وفيه يقول مناجيا ربه سبحانه وتعالى ومثنيا عليه ـــ :

« تعاليت يارب ما أجلك ، خلقت الخلق ، وأجريت الرزق ، بك ينمو الزرع ، ويدر الضرع ، سبحانك اللهم ما أوسع ملكك، وما أعظم سلطانك، السماء والأرض لك ، والملائكة الأطهار جندك ، والملوك المتوجون عبيدك ، تبارك وتعاليت ، صنعت فأعجزت ، وصورت فأحسنت ، الجن والإنس خلقك ، والجسم والروح عملك ، لا إله إلا أنت ، منحتنا بصائر لا تنكرك ، وأبصارا لا تدركك ، يسبح الرعد بحمدك ، ويترنم الطائر بمجدك ، البحار لا تقر من خشيتك، والجبال جامدة من هيبتك ، ولقد جرى النسيم بلطفك ، وتقلب

كل مخلوق فى رحمتك ، تباركت تباركت ، لا أول قبلك ، ولا آخر بعدك ، كيف تخفى والشمس بعض بيناتك ؟ وكيف تدرك والروح بعض أسرارك ؟ ، فأنت الأول والآخر والظاهر والباطن ، تعاليت تعاليت ، آمن بك المؤمن ولم يرك ، وجحدك الجاحد ووجوده شاهد بوجودك ، سبحانك سبحانك ، بهرتنا آلاؤك ، وغاب عنا لألاؤك ، ماء وحجر ، وأرض وقمر ، وزاحف وطائر ، وصادح وباغم ، أنبت لنا من الأرض عجبا : نخيل وأشجار ، وأزاهير وثمار ، رب ، من أين للورد شذاه ؟ ومن أين للغصن عوده ولحاه ؟ ومن أين للثمار طعومها المختلفة ، وأشكالها المتباينة ، وألوانها المتغايرة ؟ ، من أين كل هذا يارب ؟ سائغ وغير سائغ ، وناصع وفاقع ، تباركت مخرج الخضراء من الغبراء ، وخالق العجب من طين وماء . سبحانك اللهم سبحانك ، جلت عظمتك ، وتعالت قدرتك ، أعجزت الإنسان بالجبال والنمال ، بل أعجزت الإنسان بذات الإنسان ، عظم ولحم ، وعروق ودم ، وظفر وشعر ، وسمع وبصر ، قلت للسان ذق وهو لحمة فذاق ، وقلت للعين أبصرى وهى شحمة فأبصرت ، سبحانك اللهم ، وهذا

القلب الخافق بم يخفق؟! أشهد أن لا إله إلا أنت رب المشارق والمغارب ، والنجوم والكواكب ، تباعدت فهى منفصلة ، وتجاذبت فهى متصلة ، عجزت عقولنا عن الإحاطة ببعض ما خلقت فكيف تحيط بك ؟ سبحانك سبحانك ! هذه دنياك فكيف آخرتك ؟ وهذا شأن آثارك فكيف شأنك ؟ تباركت من إله صادق ، وتعاليت من رب حق . »

نعم ، هذا هو الإله العظيم الذى لا شك فى وجوده ، والذى لن نستطيع أبدا أن نحصى نعمه أو نعدد آثاره علينا وعلى غيرنا من المخلوقات الأخرى التى جميعها تسبح بحمده سبحانه وتعالى.

تاللّه لـــو سجـــدنا بالعيـــون لـه

عـلى شبا [1] الشوك والمحمـى من الإبر

لـم نبلغ العُشْـرَ مـن معْـشار نعـمته

ولا العُشَـــيرَ ولا جـــزءا من العُـــشُر

لأنه الـرب العظـيم ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾

---

(١) شبا الشوك : أطرافه

وَٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ۝ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ﴾ (١) .

ولهذا كان من الخير لكل إنسان عاقل ـ ذكرا كان أم أنثى ـ أن يكون على صلة بهذا الإله الخالق البارئ المصور الذى إذا أراد شيئا قال له كن فيكون ، والذى ﴿ ..لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَىۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ (٢)

وذلك بالإكثار من ذكره سبحانه وتعالى ؛ لأن الذكر الصحيح هو أقرب الطرق إلى الله تبارك تعالى ؛ ففى القرآن الكريم يقول تبارك وتعالى :

* ﴿ فَٱذۡكُرُونِىٓ أَذۡكُرۡكُمۡ . . . ﴾ (٣)

وقد ورد فى حديث صحيح متفق عليه :

* عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : **(يقول الله تعالى : أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه إذا**

---

(١) سورة الأعلى : ٢-٥

(٢) الشورى : من الآية ١١.

(٣)البقرة : من الآية ١٥٢ .

ذكرنى، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ [١] ذكرته فى ملأ [٢] خير منهم » .

* وعن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: **(ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها [٣] عند مليككم ، وأرفعها فى درجاتكم ، وخير لكم من إنفاق الذهب والفضة ، وخير لكم من أن تَلْقَوْا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟) قالوا : بلى ، قال : (ذِكْرُ الله تعالى) رواه الترمذى ، قال الحاكم أبو عبد الله : إسناده صحيح .**

* وعن عبد الله بن بسر رضى الله عنه أن رجلا قال يارسول الله : إن شرائع الإسلام قد كثرت عَلَىَّ فأخبرنى بشىء أتشبث به [٤] ، قال : **(لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله)** رواه الترمذى ، وقال : حديث حسن .

---

(١) جماعة الذاكرين .

(٢) أى الملائكة .

(٣) أى أطهرها وأكثرها ثوابا .

(٤) أى اعتصم حقيقة به أو مجازاً .

فاذكر كل هذا ـ أخا الإسلام ـ مع ملاحظة ما جاء فى هذه النصيحة التى يقول فيها الشيخ محمد محرم العمروسى رحمه الله مرشدا إيانا نحن الذاكرين ـ إن شاء الله ـ إلى أكمل الحالات:

تمسكْ بحبل الشرع واضرب بسيفه
رءوس المعاصى واتخذْ منه جوشناَ
وبادرْ إلى إنكار ما كان خارجا
عن الحق واحذر أن تكون مُداَهنا
ولا تجعل الذكر النفيس وسيلة
إلى عَرَضِ الدنيا المعَرَّض لِلْفَنَا
ولا تجعلْ المقصود منه تَكَسُّباً
فتنحطَّ قدراً من عُلاك وتُفْتَنَا
ولا تتخذْه للرياسة سُلَّماً
فتغضبَ مربوبا وربا مهيمناَ

وتـأتىَ مـــا تـــــأتى رياءً وسُـــــمْعَةً

وتتـخد الشـــركَ الخَـــفِىَّ تَدَيُّنـــــاَ

وليست بإرخـــاء الشـــعور ولا يـــة

إذا كان منـــك القلب أسـودَ عـاطـــنا

وليســـــت بإظهار التَّبـــــالُه خدعة

إذا كان فيـــك الغشُّ والمكرُ كامِنـــا

وغير مفـيد لُبْسُ تـــاج وخِـــرقة

إذا كـان إبليـس بجســمك ساكنـــا

فوحـــد هوى ليلى لتحظى بوصـلها

وتـــرقى بلقيـــاها وتظـفر بـالمنـــى

ومادمـت مأســورا لنفسـك والهـــوى

فـمازلت فـى ســجن القــطيعة قاطـنا

فَطَلِّقْ ـ هـداك الله ـ نفســا خـئونة

طـلاقا صريحا بالثـــلاثة بائـــــنا

فـــما هـى إلا ذات سُـــمٍّ مُخبَّـــأ

وأعـــدى عـــدو فـى الحَشـــا مُتَوَطِّنا

وإلافَـدَعْ دعـوى الصـلاحِ ولا تكـن

بغيـــر فـــلاح للـولايـــة مُعْلِنـــا

وخَلِّ مقـــاماتِ الرجال لأهلهـــا

وعـشْ خـاليا فالحـبُّ راحتُـــه عَـــنا

فيـــا فقـراء الوقـت مـــالى أراكـمـو

أتيـــتم أمورا لا تَحِـلُّ بشـــرعنـــا

فكـم بِـدَعٍ أحـدثتموها بجهلـــكم

وصـرتم عليـهـا عاكفـين ليومنـــا

جـعلتم طـريق القـوم رقصـا وصـيحة

ومُنْـــكَرَ أصوات يهـــيج للغنـــا

ومَـلْءَ بطـــون من غذا لم يفد سـوى

تجـــشئكم ـ ياقـوم ـ حـول بيـــوتنـا

وتحصـــيل أرزاق وضـــرب عـــوائد

عـلى الـناس تـأباها قواعـــدُ ديننـــا

وحرفتمو التهليل عن وضـــعه الذى

أتـانا بـــه التنزيل من عند ربنـــــا

وطرقتـــمو فيـــه طرائق لم يـــكن

علـيها رســـول اللـــه والقـوم قبلنـا

أكان رســـول اللـه يصـــحب مـنشدا

ينادى بأعـلى الصـــوت ليـــلا مُدَنْدِناَ

فما زدتمـــو المـــردانَ إلا تمـــرُّداً

ومـــا زدتمـو الشـــيبان إلا تَشَيْـــطُناَ

،مازدتمـو الجهـــال إلا جهـــالة

وبـــعدا عـن الأخـرى وقربا إلى الدُّناَ

فكن عالما بالشرع واعـمل بـه فَـمَنْ

أراد طريقـــا دون علـم فقـــد جنَى

ولا ينبـــغى للجـــاهلين تصـــدر

ولا نـشر أعـــلام الشـريعـــة بيننـــا

ألـــم يعـلـموا أن الطـــريق كنـــاية

عـن العـمل الجـارى على وَفْقِ شرعنا

وذبح النفـــوس الضـــاريات بِمُـدْيِة

مـن الخـلق حـتى لا تميل إلى الخنـا

وزهـــد عن الدنيـــا وعن شـــهواتها

وعـمن يراهـــا أكـبر الهـــم مُقْتَـنَى

وجـــوع وصـمت واعتـزال وفـكرة

بهـا حـضرة الرحمن تدخـــل آمنا

وذكـر بنـار الشـوق يحـرق خاطـــرا

ويغـــرق فى بحر المـــدامع أعينـــا

يكون بجد واجتهـــاد وهمـــة

مُشَـــمِّرَةٍ لا بالتكاسُـــل والوَنـــى

وعـلـم وحـلم واقـتـداء بـعـارف

دسـائس للشـيطان والنفـس والـدُّنا

فمن لم يصاحب شيخَ صدق ومُخلصاً

يكون له الشـيطان شـيخا مُلَقِّنـا

فأَخْلِصْ ـ هداك اللـه ـ تخـلص فهذه

طـريقـتـنا الـغـراء دانيـة الْـجَنَى

* * فافهم هذه النصيحة ـ أخا الإسلام ـ وذكر بها هؤلاء الأدعياء الذين يزعـمـون أنهم من أهل الطريق السـوى وهم فى الحقيقة من أهل الطرق الأخرى التى لا توصل إلا إلى النار ؛ لأنها تخالف شرع اللّه ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾[1].

* وقد قرأت أن سيدى إبراهيم الدسوقى ـ رحمه اللّه تعالى ـ كان إذا أخذ العهد على فقير يقول له : يا فلان اسلك طريق النسك على كتاب اللّه تعالى وسنة نبيه ﷺ ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، والحج إلى بيت اللّه الحرام ، واتباع جميع

(١) الكهف ، من الآية : ١٠٤ .

الأوامر المشروعة والأخبار المرضية والاشتغال بطاعة الله تعالى قولا وفعلا واعتقادا ، ولا تنظر يا ولدى إلى زخارف الدنيا ومطاياها وقماشها ورياشها وحظوظها ، واتبع نبيك محمداً ﷺ فى أخلاقه ، فإن لم تستطع فاتبع شيخك ، فإن نزلت عن ذلك هلكت مع الهالكين .

* وكان الجُنيدُ ـ رحمه الله تعالى ـ يقول : من لم يسمع الحديث ويجالس الفقهاء ويأخذ أدبه عن المتأدبين أفسد مَنْ اتبعه .. وكان يقول : علمنا هذا مقتد بالكتاب والسنة ..

* ولله در شيخنا وإمامنا الشيخ محمود خطاب السبكى ـ رحمه الله تعالى ـ فلقد قال فى كتابه : (المقامات العلية) كلاما هاما ، جاء فيه :

اعمل بآثار النبى فإنها النور المبين
واقبل نصيحتها ففيها العز والشرف المكين
واشدد يمينك بالشريعة إنها السبب المتين

** فلاحظ كل هذا ـ أخا الإسلام ـ وقل لهؤلاء المبتدعين الضالين المضلين الذين يرقصون ويطبلون ويزمرون بدعوى أنهم يذكرون:

ليس التصوفُ لُبْسَ الصوف ترقعه

ولا اهتزازاً إذا غَنَّى المغَنُّونا

بل التصوفُ أن تصفو بلا كدر

وتتقى اللّه والقرآن والدِّينا

* * هذا ، وإذا كان لنا بعد هذا التقديم الذى كان لابد منه حتى نتعرف من خلاله على عظمة الخالق سبحانه وتعالى ونعرف الأدلة النقلية والعقلية على وجوده من خلال آياته البينات التى من أهمها أنفسنا ، فهى من أكبر الأدلة الباهرة على وجود الخالق المبدع سبحانه تعالى :

أريد بعد كل هذا ، وقبل أن ننتقل إلى (موضوع الكتاب) وهو : الواجب ، والمستحيل ، والجائز فى حق اللّه تبارك وتعالى ـ

أن نقف على بعض الملاحظات الهامة المتعلقة بهذا الموضوع ، وهى[1]

حقيقة المعرفة والتقليد والدليل

فأما المعرفة فهى : (إدراك جازم مطابق للواقع ناشئ عن دليل) كاعتقاد من توصل بالدليل إلى أن البعث حق (فإدراك) جنس يشمل الجازم وغير الجازم ، والمطابق للواقع وغير المطابق ، والناشئ عن دليل والخالى عن الدليل (وجازم) : قَيْد أول يُخْرِج الظنَّ والشكَّ والوَهْم فليست معرفة (ومطابق للواقع) : قيد ثان : يخرج الإدراك الجازم المخالف لما فى الواقع فليس معرفة بل جهل مركب كاعتقاد الفلسفى قِدَمَ العالم (وناشئ عن دليل) : قيد ثالث يخرج الإدراك الجازم المطابق للواقع الخالى عن الدليل ، فليس معرفة بل هو تقليد .

وأما التقليد فهو : (الأخذ بقول غير المعصوم واعتقاده من غير معرفة دليل له) فإذا أخبرك شخص غير معصوم بأن البعث حق

---

(١) كما جاء فى مذكرات التوحيد ، لفضيلة الشيخ حسين عبد الرحيم مكى، أكرمه الله تبارك وتعالى .

فاعتقدت هذا الحكم من غير أن تعرف له دليلا كنت مقلدا له فى ذلك الحكم .

وأما الدليل : فيراد به عند المتكلمين ما يوصل إلى اليقين بعقائد التوحيد، وهو قسمان : نقلى وعقلى • فالنقلى آيات القرآن الصريحة فى دلالتها والأحاديث المقطوع بصحة روايتها ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) فإنه يوصل إلى اليقين بثبوت القدرة لله تعالى ، وقوله ﷺ (**أنا العاقب فلا نبى بعدى**) فإنه يوصل إلى اليقين بأنه عليه السلام خاتم النبيين .

والدليل العقلى : ما لم يكن من كتاب أو سنة ، وهو قسمان: تفصيلى وإجمالى ، فالدليل التفصيلى هو المقدور على تقريره وتفصيله ودفع الشُّبَه الواردة عليه ، كقول العالم : دليل وجود الله هذه المخلوقات ، فإن العالم يقدر على تفصيله بقوله : هذه المخلوقات حادثة فلابد لها من مُحْدِث ، وذلك المحدث الموجود يجب أن يكون

---

(١) نهاية ثمانى آيات ، ثلاث منها فى سورة البقرة ، وأرقامها : ٢٠و ١٠٩و ١٤٨ ـ كما أنها نهاية الآية ١٦٥ : آل عمران،والآية ٧٧ : النحل / والآية ٤٥ النور / والآية ٢٠ : العنكبوت / والآية الأولى من سورة فاطر

وجوده لذاته وهو اللّه ، وإذا وردت عليه شبهة أمكنه دفعها ، فالأدلة العقلية التى يستدل بها العالم أدلة تفصيلية ، فُصِّلَتْ بالفعل أم لم تُفَصَّل .

والدليل الإجمالى : هو المعجوز عن تقريره وتفصيله ودفع الشبهة عنه ، كقول العامى : دليل وجود اللّه هذه المخلوقات ؛ فإن العامى يعجز عن تقريره وتفصيله ، وإذا وردت عليه شبهة لا يستطيع دفعها ، فالأدلة العقلية التى يستدل بها العامى أدلة إجمالية لعجزه عن تفصيل الأدلة ودَفْع الشُّبَه عنها .

المعرفة والتقليد فى عقائد التوحيد

وقد اختلف العلماء فى كفاية التقليد فى عقائد التوحيد وعدم كفايته ، فذهب جماعة إلى أن التقليد لا يكفى فى العقائد ولا يحصل الإيمان ، وأن المقلّد فى العقائد غير مُؤْمِن عند اللّه وعندنا ، فلا يدخل الجنة ، ولا نعامله معاملة المسلمين ، وبَنَوْا هذا على أن الدليل فى العقائد واجِب وجوب الأصول ، وأنه شرط لصحة الإيمان ، وهذا المذهب هو خلاف الراجح .

ودليلهم : أن المكلّف مطالب بالمعرفة ، والمعرفةُ اعتقاد جازم مطابق للواقع ناشئ عن دليل ، وبانتفاء الدليل تنتفى المعرفة ، ومتى انتفت المعرفة انتفى الإيمان ؛ لأن الإيمان إما نفس المعرفة أو حديث النفس التابع للمعرفة .

وذهب آخرون إلى أن التقليد يكفى فى العقائد ويُحَصِّلُ الإيمان المطلوب ، وأن المقلّد مُؤْمنٍ عند اللّه وعندنا ؛ لأن المطلوب التصديق بالعقائد ، وقد تحقق ذلك من المُقَلِّد إلا أنه إذا كان قادرا على الدليل يأثم بتركه كما يأثم بترك نحو الصوم ، وبنوا هذا على أن الدليل فى العقائد واجب وجوب الفروع ، وأنه غير شرط لصحة الإيمان بل لكماله ، وهذا هو المذهب الراجح .

ودليلهم : أن المكلَّفَ مُطَالَب بالإيمان ، والإيمان قد بيَّنَه المصطفى ﷺ حين سئل عنه بقوله : (**أن تؤمن باللّه وملائكته، وكتبه ، ورسله**) ـ الحديث ، فذكر عليه السلام التصديق مجردا عن الدليل ، فلا يكون الإيمان متوقفا على الدليل ، والمقلد وُجِدَ منه التصديق الجازم بالعقائد فيكون آتيا بالمطلوب .

والدليل الذى اختلفوا فى أنه شرط لصحة الإيمان أو غير شرط هو الدليل الإجمالى ؛ لأنه الميسور لعامة الناس ، أما الدليل التفصيلى فلا خلاف بينهم فى عدم توقف الإيمان والمعرفة عليه ، وأنه ليس واجبا عينيا على كل مكلف ؛ لأنه ليس مقدورا إلا للعلماء ، بل هو واجب كفائى لدفع الشبه الواردة على العقائد ، فإذا أتى به البعض سقط الوجوب عن غيره .

حقيقة الإيمان وبيان المذاهب فيه

الإيمان لغةً مُطْلَقُ التصديق ، وشرعا فيه مذاهب ، والمشهور منها مذهبان : أحدهما الأشاعرة والماتريدية وهو أن الإيمان (تصديق النبى ﷺ بالقلب فيما عُلِمَ مجيئهُ به من الدين بالضرورة) أى التصديق بكل ما اشتهر بين المسلمين أنه من دين نبينا محمد ﷺ وصار العلم به يشابه العلم الحاصل بالضرورة يعلمه العامة من غير افتقار إلى نظر واستدلال كوجود الله تعالى وملائكتة وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وكوجوب الصلاة والزكاة ، وحرمة الخمر والزنى

ويكفى التصديق الإجمالى فيما يلاحظ إجمالا . كغالب الملائكة ، والأنبياء، والكتب . ويشترط التصديق التفصيلى فيما

يلاحظ تفصيلا ، كسيدنا محمد ، وإبراهيم ، وعيسى ، وجبريل، وميكائيل ، والقرآن ، والتوراة، والإنجيل .

والمراد بتصديق النبى : الإذعان والقبول لما جاء به ، وترك العناد والتكبر ، ولايكفى مجرد اعتقاد صدق النبى ؛ فإن كثيرا ممن كانوا فى زمنه عليه السلام ، كانوا يعتقدون صدقه ومع ذلك لم يكونوا مؤمنين ؛ لأنهم لم يذعنوا له ، ولم يقبلوا ما جاء به ؛ ولم يتركوا العناد والتكبر • قال تعالى :

﴿... يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (١) .

﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ ... ﴾ (٢).

وعلى هذا المذهب : فالنطق بالشهادتين والأعمال الصالحة غير داخلين فى حقيقة الإيمان ؛ لأنه مجرد التصديق بالقلب . بل الأعمال الصالحة شرط كمال للإيمان . والنطق بالشهادتين شرط لإجراء الأحكام الدنيوية بالنسبة لكافر يريد الدخول فى

---

(١)البقرة : من الآية ١٤٦ •

(٢)النمل : من الآية ١٤•

الإسلام ؛ لأن الإيمان خفى فلابد له من علامة ، وهى النطق بالشهادتين فى حق القادر على النطق أو ما يقوم مقام النطق بهما فى العاجز عن النطق .

فمن صدق بقلبه من الكفار ونطق بالشهادتين فهو مؤمن عند اللّه وعندنا . فيستحق الجنة ونعامله معاملة المسلمين . ومن صدق بقلبه منهم ولم ينطق بالشهادتين وهو قادر على النطق فهو مؤمن عند اللّه فيستحق الجنة ، وليس بمؤمن عندنا فلا نعامله معاملة المسلمين . أما من بلغ من أولاد المسلمين فإن النطق بالشهادتين غير شرط لإجراء الأحكام الدنيوية عليه . بل هو مؤمن عندنا ولو لم ينطق بهما مدة حياته ؛ لأن الأصل فيه الإيمان . إلا إذا ظهر عليه ما يدل على عدم إيمانه ، فنحكم عليه بالكفر .

والنطق بالشهادتين واجب وجوب الفروع مرة فى العمر على كل مكلف كحمد اللّه تعالى والصلاة على النبى ﷺ ، فمن تركه يأثم.

المذهب الثانى فى حقيقة الإيمان هو ما نقل عن الإمام أبى حنيفة ، واشتهر عن أصحابه وبعض الأشاعرة ، وهو أن الإيمان :

(تصديق بالقلب ونطق بالشهادتين) فهو مركب من جزأين ولا يتحقق إلا بهما معا ، إلا فى حق العاجز عن النطق والمكْرَه فإن إيمانهما يتحقق بتصديق القلب ، ولا يتوقف على النطق بالشهادتين ، فالتصديق جزء لا يحتمل السقوط أصلا ، والنطق بالشهادتين جزء يحتمل السقوط عند العجز أوالإكراه ، قال تعالى : ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (١) .

﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ (٢) .

حقيقة الإسلام وبيان المذاهب فيه

الإسلام لغة مطلق الانقياد . وشرعا فيه مذهبان : أحدهما لجمهور الأشاعرة وهو : أن الإسلام (الامتثال الظاهرى لأوامر الشرع ونواهيه وقبولها وعدم ردها) سواء أعمل الممتثل بمقتضى تلك الأوامر والنواهى أم لم يعمل .

وعلى هذا المذهب فالإسلام والإيمان متغايران ؛ لأن الإسلام هو الامتثال الظاهرى ، والإيمان هو التصديق الباطنى ، إلا أنهما

---

(١) البقرة : من الآية ٢٨٦ .

(٢) النحل : من الآية : ١٠٦ .

متلازمان فى التحقق بحسب الشرع ،

فلا يوجد إسلام معتبر شرعا بدون إيمان ، وبالعكس ، ولا يوجد مسلم ناج ليس بمؤمن ، وبالعكس ، وقد يوجد إسلام بدون إيمان كما فى المنافقين ، إلا أن هذا الإسلام غير معتبر شرعا ولاينجى صاحبه .

ثانى المذهبين فى حقيقة الإسلام مذهب جمهور الماتريدية وبعض محققى الأشاعرة ، وهو أن الإسلام شرعا : (الإذعان الباطنى والتصديق بما جاء به النبى محمد ﷺ مما علم من الدين بالضرورة) .

وعلى هذا المذهب فالإسلام والإيمان متحدان فى المعنى ومتغايران فى اللفظ ، والنطق بالشهادتين دليل على ما فى القلب من الإيمان والإسلام .

ما اعتبره الشارع منافيا للإيمان

اعتبر الشارع الحكيم أمورا تنافى الإيمان ، يدل وجودها على فقد الإيمان من قلب مرتكبها ، منها السجود لصنم ووصف الله

تعالى بما لا يليق بذاته المقدسة ، وسب أنبيائه وملائكته وكتبه ، والاستخفاف بالمصحف والكعبة ، والاستهزاء على الشريعة واستحلال المحرم المجمع على تحريمه كشرب الخمر ، وإنكار ما علم من الدين بالضرورة كإنكار وجوب الصلاة ، فمن اتصف بنحو هذه الأمور حكمنا عليه بالكفر ؛ لأن وجودها دليل على أن قلبه غير عامر بالإيمان . وهكذا كما ترى ـ أخا الإسلام ـ كان لابد أن تكون على علم بكل تلك الأساسيات العقائدية التى يجب على كل مكلَّف ذكر أو أنثى ، حر أو رقيق أن يعتقدها ، فيجب عليه أن يعرف الصفات الواجبة لله تعالى ، وأن يعرف الصفات الواجبة للأنبياء والرسل ، والمستحيلة عليهم ، والجائزة فى حقهم عليهم الصلاة والسلام ، وأن يعرف ما جاء فى الكتاب والسنة من أحوال الموت والقبر وما بعدهما . ومن لم يعرف ذلك [1] فليس بمسلم ، ويخلد فى نار جهنم .

(والمعرفة) هى الإدراك الجازم المطابق للواقع عن دليل (والواجب) الأمر الثابت الذى لا يقبل الانتفاء كَكَوْن الجسم

---

(١) كما جاء فى الجزء الأول من (الدين الخالص) . م

متحركا أو ساكنا ، وكَوْنِه صغيرا أو كبيرا ، وكَوْنه ناعما أو خشنا . ونحوه مما لابد للجسم منه (والمستحيل) الأمر المنفى الذى لا يقبل الثبوت ككَوْن الجسم متحركا ساكنا أو طويلا قصيراً ، أو حيوانا جماداً فى آن واحد (والجائز) ما يقبل الثبوت والانتفاء ككون الجسم صغيرا فى وقت كبيرا فى وقت آخر ، وكونه قصيرا فى وقت طويلا فى آخر ، وكونه حيا فى وقت ميتا فى آخر .

* * وإذا كان لنا بعد هذا أن ندور حول :

الواجب في حق الله تبارك وتعالى

فإنه يجب على المكلف أن يعتقد أن الله تعالى متصف بالصفات الجليلة القديمة الثابتة بالأدلة التفصيلية وهى ثلاث عشرة:

إليك بيانها ، كما جاء فى الجزء الأول من الدين الخالص ـ بتصرف وإضافات [1] :

١ – الوجود : فهو تعالى موجود بلا ابتداء قبل وجود جميع الحوادث من عرش وكرسى وسموات وسائر العالم (والدليل)

---

(١) من المراجع التوحيدية الصحيحة .

على ذلك خَلْقُهُ تعالى السموات وما فيها من الكواكب والملائكة ، والأرض وما فيها من الجبال والرمال والأشجار والأحجار والبحار والأنهار والحيوانات والجمادات ؛ لأن الصنعة لابد لها من صانع موجود . وقد قال الله عز وجل : ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (١) ، ومن البديهى أن موجِد الشيء لا يكون معدوما ؛ لأن المعدوم لا يعطى الوجود .

* * ومن أجمل البراهين التى قرأتها لبعض الفلاسفة والتى نستطيع بها الاستدلال على وجود الخالق سبحانه وتعالى (٢) :

* ما قاله الفيلسوف الفرنسى ديكارت (١٥٥٦ - ١٦٥٠):

(إن فكرة الألوهية موجودة فى أذهاننا ، ووجودها الذهنى دليل على وجود حقيقة خارجية هى مصدرها) .

وقال : (إن هذه النفوس التى تدرك ذاته تعالى موجودة يقينا ، ولا يصح أن يكون وجودها صادرا عنها ؛ لأنى ـ وأنا الذى يتصور الكمال فى أجلى مظاهره ـ لو أوجدت نفسى لمنحتها أعظم قسط منه مع أنها فى الواقع ناقصة) .

---

(١) غافر، من الآية : ٦٢ .

(٢) كما جاء فى كتاب (البحوث الدينية التوحيدية) طبعة دار المعارف بمصر .

* وقال مالبيرانش الفرنسى (١٦٣٨ - ١٧١٥) :

(اللّه هو الموجود والحق والفاعل الوحيد ، وليس وجوده ـ جل شأنه ـ فى حاجة إلى إثبات ؛ لأن فكرة الألوهية الماثلة فى أذهاننا جميعا ، والتى تدركها مباشرة ، وبدون واسطة ـ تستلزم الوجود ، ولا يمكن أن يكون العدم موضوعا لتفكيرنا بحال) .

* وقال بينتر الألمانى (١٦٤٦ - ١٧١٦) :

(هناك فرق بين الممكن والواقعى والضرورى ، فالأول ما احتمل الوجود والعدم ، والثانى ما وجد بعد عدم ، والثالث هو الموجود أزلا الذى يستحيل ضده ، والذى استغنى عن البواعث والعلل ، ومبدأ السبب الكافى يقضى بأن الممكن لا يصبح واقعيا إلا بواسطة علة أخرى ضرورية تمنحه الوجود ، فوجود العالَم دليل البارئ جل شأنه ، الذى صيره واقعيا بعد أن كان محتملا للوجود والعدم) .

* وفى نقاش الماديين يقول الأستاذ العقاد رحمه اللّه :

(وما من مذهب اطلعت عليه من مذاهب الماديين إلا وهو يوقع العقل فى تناقض لا ينتهى إلى توفيق ، أو يلجئه إلى زعم لا

يقوم عليه دليل ، فالقول بالتطور فى عالم لا أول له خرافة تعرض عنها العقول ؛ لأن ابتداء التطور يحتاج إلى شىء جديد فى العالم القديم ، وحدوث التطور بغير ابتداء تناقض لا يسوغ فى اللسان ، فضلا عن الفكر والخيال ، والقول بأن المادة تخلق العقل، كالقول بأن الحجر يخلق البيت ، وأن البيت يخلق الساكن فيه ، وأيسر من ذلك عقلا ، بل ألزم من ذلك عقلا أن يقال : إن العقل والمادة موجودان وإن أحراهما بأن يسبق الآخر ، ويخلقه هو العقل ؛ لأن المادة لا توجد ما هو أفضل منها ، وفاقد الشىء لا يعطيه) .

وبهذا ندرك الفرق بين وجود الله ووجود العباد ، فوجود الله واجب للذات ، لا يقبل الانتفاء ، فلا بداية له ولا نهاية ، أما وجود العباد فجائز يقبل الثبوت والانتفاء وله بداية ونهاية ، فهم يوجدون بعد العدم ، وينتهى وجودهم متى أراد الله .

ولهذا ، فقد جاء فى بداية البحث المفيد ، تحت عنوان :

ما يجب في حق الله وما يستحيل عليه

أن الصفات التى يجب ثبوتها لله تعالى أنواع ثلاثة :

١ – صفة نفسية : لا تتحقق الذات إلا بها ، وهى صفة الوجود .